رواية "فايزة التحدي.."

تفجير لزمن الانهزام!!

■ بقلم: عمر بوشموخة

..إنه التحدي الكبير حقا، حين تأخذ الكتابة شكل الثورة والتمرد على واقع مؤلم تحكمه تقاليد بالية جامدة تبلغ حد التحجر والتزمت...واقع تدفع ثمنه المرأة، في صمت وسكون ونسيان مطلق مطبق ضمن ثقافة أحادية لا تعترف إلا بثقافة ذكورية سائدة مسيطرة جامحة... والتحدي يأخذ شكلا أكبر حين يتعلق الأمر ببطولة أنثوية مزدوجة:

1-بطلة رواية "فايزة لتحدي" التي عرفت طريقها إلى القارئ الجزائري في الفترة الأخيرة.

2-كاتبة الرواية "نسيمة طرفاية" الأديبة العنابية التي فاجأت الساحة الأدبية الجزائرية بروايتها الأولى التي اختارت لها العنوان المذكور في إصرار واضح على شق طريق التحدي، الذي يضع القارئ أمام خطين متوازيين:

-تحدي المرأة بطلة القصة "فايزة" للأعراف والتقاليد التي تفرضها ثقافة المؤسس على عدم الإعتراف بحق الوجود للنصف الآخر..

-تحدي المرأة الكاتبة للواقع البائس الذي يعيشه الأديب وحامل القلم في وطن يعادي الكتاب حامل الوعاء الحضاري، ويناصب العداء لكل فكرة جميلة يزفر بها قلم المبدع الحقيقي الأصيل، لا سيما إذا كان هذا الأديب يحمل في أحشائه ثورة التحدي والتمرد، تماما مثل مؤلفة رواية "فايزة التحدي"... ضمن هذا المنظور تعلق الكاتبة "نسيمة طرفاية" بأفكارها المتوثبة، من خلال المواقف المبدئية المعبر عنها من بطلة روايتها "فايزة" في محاولة لإبراز ما تعانيه المرأة والفتاة من إحساس بالاضطهاد والقهر والتهميش، والحرمان من تحقيق ذاتها وطموحاتها وسط الإزدراء، ليس لكونها امرأة ترنو نحو التحرر فقط ولكن لكون أنها مجرد أنثى، لم تختر ولادتها بإرادتها، فكان لا بد من رؤية تخالف الثقافة السائدة التي أفرزتها ثقافة الرجل، من زاوية أحادية تقوم على القمع والقه إزاء كل رائحة يشتم منها الاعتراض والتمرد...

"فايزة" ليست سوى امرأة ولدت وترعرعت في أحضان قساوة المجتمع الجزائري (والعربي أيضا)، لكنها في القوت ذاته امرأة لا تشبه أخواتها من بنات حواء، لأنها وببساطة تؤمن بمقدرة المرأة على تحدي الرجل في مختلف المجالات والميادين التي اختص بها الرجل دون المرأة وفق الترتيبات التي وضعها المجتمع القائم على تعظيم الرجل وتحقير المرأة أو على الأقل التقليل من شأنها وفعاليتها داخل محيطها وخارج قبيلتها...

وعلى الرغم من أن هذا الموضوع قد طرقته العديد من الروائيات والمبدعات العربيات مثل "نوال السعداوي" و"غادة السمان" و"أحلام مستغانمي"، وغيرهن، فإن المبدعة العنابية "نسيمة طرفاية" لم تقع في فخ التقليد الأعمى، بل إنها حاولت من خلال بطلتها "فايزة" أن تقدم للقراء صورة مغايرة للمرأة النمطية التي جسدتها الروائيات والمبدعات العربيات في نصوصهن الروائية والإبداعية، بحيث أننا نجد أنفسنا أمام بطلة بقدر إيمانها بحرية المرأة ومساواتها بالرجل، بقدر ما نراها تبتعد عن تصنيفها ضمن الحركات النسوية المتحررة التي يغلب على حركيتها الطابع السياسوي والتحرري، لان البطلة "فايزة" لم تنطلق أفكارها من برامج سياسية، ولم تتأسس قناعاتها التحررية من آراء وأفكار الحركات النسوية المتحررة التي تتاجر بها في سوق المنافع والمكاسب المادية والسياسية، وانما تنطلق من أفكار وقناعات تأسست بأعماقها ونمت بداخل اغوار نفسها، تعززها تساؤلات نابعة من فلسفتها القائمة على رفض ما هو سائد فهي لا تفتأ تسأل وتتساءل:

"لما الأشجار خضراء اللون؟ والسماء زرقاء، هل يستطيع أن يكون كل هذا مختلفا؟"وهي إذ تلح عليها أسئلة من هذا النوع الفلسفي، تحاول أن تجد من يجيبها عنها، أو على الأقل من يقاسمها هذا الإحساس بالقلق الوجودي، لكن لا أحد في القرية يشبع رغبتها الفكرية ويريحها من عبء الأسئلة التي تؤرق وجدانها..

"من يستطيع توضيح الأمور، والدها، والدتها، أمين؟"

حتى ذلك الشاب "زوبير" الطالب بكلية الحقوق لم تكن إجابته عن أسئلتها بالشيء الذي يرتقي إلى فلسفة "فايزة"

أجبني زوبير لماذا الأشجار خضراء؟

ببساطة لأن الأوراق تحتوي على مادة أساسية ذات لون أخضر تسمى "الكرولوفيل" وبفضل هذه المادة تكتسب الأشجار اللون الأخضر.

غير أن "زوبير" ينتزع إعجاب "فايزة" بإجابته التي تنم عن مستوى معرفي محترم، ليتحول الإعجاب إلى حب..والى "رباط مقدس" تعلق عليه فايزة كل شيء ...لأنها وجدت في "زوبير" الرجل المتعلم الجامعي الذي بوسعه أن يأخذ بيدها إلى فردوس الأحلام.. وتتم مراسيم الزواج بالرغم من أن العروس ما تزال طالبة بالجامعة غير أن الفرحة الكبرى لم تكتمل لان فارس الأحلام يقرر السفر إلى الخارج، لاستكمال دراساته في المحاماة... ومن هذه المحطة بالذات تبدا فايزة رحلة جديدة من المعاناة..و التحدي..حيث تغيب أخبار ومراسلات "زوبير"، وتجد الطالبة الزوجة نفسها أنها حامل، وبعد طول مدة يأتيها خبر ارتباط "زوبير" بفتاة أجنبية، بعد أن تصير "فايزة" أما لطفلة سمتها "نجاح" هذه الأخيرة لم تنفك في طرح أسئلة عن أبيها:

-أمي لماذا قريبتي صورية عندها أب وأنا لا؟

-لأن والدك مسافر لبعيد كي يعمل

-هل يعود يوما لرؤيتي؟

-نعم سيعود عما قريب

وأمام هذه التحديات الاجتماعية القاسية التي تواجه بطلة الرواية "فايزة"، تصر هذه الأخيرة على المواجهة بالتحدي الأكبر، وبإيمان أعمق، فلا تستسلم ولا تهادن، بل تواجه الحياة بمصباح الحقائق، ونور المثل العليا التي آمنت بها "فايزة" وسعت إلى تجسيدها بقوة، وبشجاعتها التي كانت سلاحها الأول للانتصار على الزيف الاجتماعي والثقافي الذي ينخر أعماق المجتمع في أبشع صورة ومعنى..

وأخيرا..هل يمكن القول أن "فايزة" هي تجسيد فعلي لشخصية مؤلفة الرواية؟

إن القصة بالتأكيد ليست قصتها..بل هي قصة المرأة الجزائرية المضطهدة داخل محيطها الأسري والاجتماعي وبعبارة أخيرة أن رواية "فايزة" تفجير لزمن الانهزام..وصرخة للتحدي الكبير !!